كامل كيلاني

أساطير العالم

القصة الأولى

الفيل الأبيض

القصة الثانية

صياد الغزلان

الطبعة الثانية عشرة

دار المعارف

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٨٧١٤
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3855 – 4

١ / ٩٢ / ٢٨٢ طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١ — « أَبُو الْحَجَّاجِ »

كانَتِ الْحَيَوانَاتُ تَتَكَلَّمُ فِي قَدِيمِ الزَّمانِ : أَعْنِي فِي الْعُصُورِ الْأُولَى الَّتِي انْقَضَى عَلَيْهَا آلافُ السِّنِينَ . كانَتْ تَتَكَلَّمُ كما يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ . وَقَدْ عاشَ — فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْغابِرَةِ — جَمْهَرَةٌ مِنَ الْأَفْيالِ عِيشَةً رَغَدًا هَنِيئَةً ، فِي بَعْضِ الْغاباتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ جِبالِ « الْهَمَلايا » فِي الْهِنْدِ .

وَكانَتْ تلكَ الْأَفْيالُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ ، حَسَنَةَ الشَّكْلِ ، وَقَدْ فاقَها جَمِيعًا فِيلٌ يُدْعَى : « أَبا الْحَجَّاجِ » ، وَهُوَ أَبْيَضُ ، ضَخْمُ الْجُثَّةِ ، نَبِيلُ النَّفْسِ ؛ فَأَصْبَحَ بَيْنَ الْأَفْيالِ جَمِيعًا خَيْرَ مِثالٍ لِأَنْبَلِ الْمَزايا ، وَأَكْرَمِ الْأَخْلاقِ .

٢ — « أُمُّ شِبْلٍ »

أَمَّا « أُمُّ شِبْلٍ » — وَهِيَ أُمُّ ذَلِكَ الْفِيلِ الْوَدِيعِ الْكَرِيمِ النَّفْسِ — فَقَدْ كانَتْ ، وَالْحَقُّ يُقالُ ، حَكِيمَةً مُجَرِّبَةً ، تَجْمَعُ

– إِلَى سُمُوِّ السَّجايا – بُعْدَ النَّظَرِ ، وَأَصالَةَ الرَّأْى ، وَصِدْقَ الْفِراسَةِ (صِحَّةَ الِاسْتِدْلالِ مِنَ الظَّواهِرِ الْبادِيَةِ) . وَلٰكِنَّ الشَّيْخُوخَةَ أَقْعَدَتْها – لِسُوءِ الْحَظِّ – وَأَعْجَزَتْها عَنِ السَّيْرِ ، وَكُفَّ بَصَرُها (عَمِيَتْ) . فاشْتَدَّ عَجْزُها ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْها آفاتُ الْهَرَمِ وَعِلَلُهُ ؛ فَلَبِثَتْ – فِى مكانِها – لا تَنْتَقِلُ خُطْوَةً ، وَلا تُحَرِّكُ قَدَمًا .

٣ – وَفاءُ « أَبِى الْحَجَّاجِ »

وَقَدْ كانَ وَفاءُ « أَبِى الْحَجَّاجِ » لِأُمِّهِ عَلَى أَحْسَنِ ما يَفِى وَلَدٌ بارٌّ لِوالِدَتِهِ الْحَنُونِ . نَعَمْ ، عُنِىَ « أَبُو الْحَجَّاج » بِـ « أُمِّ شِبْلٍ » الْعِنايَةَ كُلَّها ، وَلَمْ يَأْلُ جُهْدًا فى إِسْعادِها وَبِرِّها ، وَتَلْبِيَةِ طِلْبَتِها .

وَكان « أَبُو الْحَجَّاج » يَخْرُجُ – كُلَّ يَوْمٍ – لِيَجْمَعَ لِأُمِّهِ الْعَجُوزِ أَطْيَبَ الْفَواكِهِ الْبَرِّيَّةِ اللَّذِيذَةِ الطَّعْمِ ، وَلا يَدَعُ لَها مَجالًا لِلتَّحَسُّرِ عَلَى أَيَّامِ شَبابِها الْأُولَى ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَقُومُ لَها بِكُلِّ ما تَشْتَهِيهِ مِنْ أَلْوانِ الْأَطْعِمَةِ ، وَصُنُوفِ الْأَشْرِبَةِ .

٤ — لُصُوصُ الْأَفْيال

وَلٰكِنَّ أَمْرًا واحِدًا كانَ يُزْعِجُ « أَبا الْحَجَّاج » وَيَهُمُّهُ ، وَيَمْلَأُ نَفْسَهُ حُزْنًا وَأَسًى ؛ ذٰلِكَ : أَنَّهُ رَأَى كَثِيرًا مِنَ الْأَفْيالِ الْأُخْرَى ، تَسْرِقُ طَعامَ أُمِّهِ الْعَجُوزِ ، الَّتِي كُفَّ بَصَرُها ، وَاشْتَدَّ عَجْزُها .

وَقَدْ أَنَّبَهُمْ « أَبُو الْحَجَّاج » عَلَى ذٰلِكَ مَرَّاتٍ عِدَّةً ، وَأَظْهر لَهُمْ — فى أَجْلَى بَيانٍ ، وَأَوْضَحِ أُسْلُوبٍ — أَنَّ عَمَلَهُمْ هٰذا غايةٌ فى النَّذالَةِ ، وَلُؤْمِ الطَّبْعِ ، وَفَسادِ الْخُلُقِ ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ الْفَعْلَةِ الْمَمْقُوتَةِ الشَّنْعاء . وَلٰكِنَّ الْأَفْيالَ لَمْ تُقْلِعْ عَنْ عادتِها ، وَلَمْ تَكُفَّ عَنْ سَرِقَةِ الطَّعامِ الَّذِى كانَ « أَبُو الْحَجَّاج » يَكُدُّ — طُولَ يَوْمِهِ — لِيَجْمَعَهُ لِـ « أُمِّ شِبْلٍ » .

٥ — الْعُزْلَةُ

وَفى ذاتِ يَوْمٍ ، انْتَحَى « أَبو الْحَجَّاج » أُمَّهُ جانِبًا ، وَقالَ لَها مَحْزُونًا :

« لَقَدْ تَمادَى أَصْحابُنا الْأَفْيالُ فى حَوْرِهِمْ وَعُدْوانِهِمْ عَلَيْنا . وخَيْرٌ لِى وَلَكِ يا أُمَّاهُ — فيما أَرَى — أَنْ نَعيشَ فى عُزْلَةٍ ، بَعيدَيْنِ عَنْ هٰؤُلاءِ اللُّصُوصِ الْخائِنينَ فإذا رَأَيْتِ رَأْيى ، وَرَضِيتِ عنْ هٰذا الاقْتِراحِ ؛ فَلا تَتَوانَىْ فى الذَّهابِ مَعِى إلى كَهْفٍ قَريبٍ ، قَدْ تَخَيَّرْتُهُ لِسُكْنانا جَميعًا ، وَهُوَ عَلَى مَسافَةٍ غَيْرِ بَعيدَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْغابَةِ . فَماذا أَنْتِ قائِلَةٌ ؟ »

فارْتاحَتْ « أُمُّ شِبْلٍ » لهٰذا الاقْتِراحِ السَّديدِ ، وَلَمْ تُعارِضْ فى تَلْبِيَتِهِ ، وسارتْ — مِنْ فَوْرِها — إلَى حَيْثُ يَقُودُها « أَبُو الْحَجَّاج » ، حَتَّى وصَلا إلى مَأْواهُما الْجَديدِ ، واسْتَقَرَّا فى الْكَهْفِ .

وكانَ الْكَهْفُ حَسَنَ الْمَوْقِع ، قَريبًا مِنْ بَعْضِ الْمُرُوجِ الْمُخْصِبَةِ ، الْمَمْلُوءَةِ بأَطْيَبِ الْفواكِهِ الْبَرِّيَّةِ ، وأَشْهَى الثِّمارِ اللَّذيذَةِ ، وَإلَى جانِبِهِ بُحَيْرَةٌ صَغيرةٌ ، مُغَطَّاةٌ بأَزاهِيرِ « اللُّوتَسِ » ، حَيْثُ عاشَ « أَبُو الْحَجَّاج » مَعَ أُمِّهِ زَمَنًا طَويلًا ، آمِنَيْنِ وادِعَيْنِ ، قَريرَىِ الْعَيْنِ ، ناعِمَىِ الْبالِ ، لَمْ يُكَدِّرْ صَفْوَهُما أَىُّ كَدَرٍ .

٦ – نَصِيحَةُ « أُمِّ شِبْلٍ »

وَذاتَ مَساءٍ كانَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » يَتَحَدَّثُ إِلَى « أُمِّ شِبْلٍ » فى الْغارِ – عَلَى عادَتِهِما – وَيَخُوضانِ شَتَّى الْأَسْمارِ وَمُخْتَلِفَ الذِّكْرياتِ . وَإِنَّهُما لَكَذٰلِكَ ، إِذْ طَرَقَ آذانَهُما صِياحٌ عالٍ يُدَوِّى فِى الْغابَةِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُما . فَقالَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » :

« أَلا تَسْمَعِينَ – يا أُمَّاهُ – إِلى هٰذِهِ الصَّيْحاتِ الْعالِيَةِ ؟ إِنَّها – بِلا رَيْبٍ – صَيْحاتُ إِنْسانٍ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ ، وَيَلْتَمِسُ الْغَوْثَ ، وَلَعَلَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فَرِيسَةً فى قَبْضَةِ أَحَدِ أَعْدائِه . وَلا بُدَّ لى مِنَ الْإِسْراعِ إِلَيْهِ ، لَعَلِّى أَسْتَطِيعُ إِنْقاذَهُ مِنَ الْهَلاكِ . »

فَقالَتْ لَهُ « أُمُّ شِبْلٍ » ، وَهِىَ تُحَذِّرُهُ عاقِبَةَ هٰذا الْأَمْرِ ، وَتَزْجُرُهُ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُ :

« كَلَّا – يا وَلَدِى – لا تَفْعَلْ ؛ فَإِنِّى – وَإِنْ رَأَيْتَنِى عَجُوزًا عَمْياءَ ، وَذٰلِكَ حَقٌّ لا رَيْبَ فِيهِ – أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ غَدْرَ الْآدَمِيِّينَ بِنا ، وَإِيقاعَهُمْ بِجِنْسِنا ، وَتَفَنُّنَهُمْ فى طُرُقِ الِاحْتِيالِ عَلَى صَيْدِنا .

وَإِنَّنِي لَأُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّكَ إِذا أَنْقَذْتَ هٰذا الْإِنْسانَ التَّاعِسَ الْمِسْكِينَ ، وَخَلَّصْتَهُ مِنَ الْهَلاكِ ، فَلَنْ يُقابِلَ هٰذا الْإِحْسانَ بِغَيْرِ الْإِساءَةِ والْجُحُودِ ، وَالْخِيانَةِ والكُنُودِ . »

٧ — مُخالَفَةُ النَّصِيحَةِ

وَلٰكِنَّ « أَبا الْحَجَّاجِ » لَمْ يُصْغِ إِلَى نَصِيحَةِ أُمِّهِ ، وَلَمْ يُطِقِ الْبَقاءَ إِلى جانِبِها ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَن يَتَلَكَّأَ فى إِغاثَةِ الْبائِسِ الْمَلْهُوفِ ، وَأَبى إِلَّا أَنْ يُنْقِذَهُ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ ؛ فَقالَ « لِأُمِّ شِبْلٍ » مُتَلَطِّفًا :

« اِغْفِرِى لِى — يا أُمَّاهُ — أَنْ أُخالِفَ نُصْحَكِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِى حياتى ؛ فَلَيْسَ فِى وُسْعِى أَنْ أَكُفَّ عَنْ مُعاوَنَةِ طالِبِ نَجْدَةٍ أَيًّا كانَ جِنْسُهُ ، وَلَنْ أُطِيقَ سَماعَ هٰذِهِ الصَّيْحاتِ الْعالِيَةِ الْمُؤْلِمَةِ ، دُونَ أَنْ أَبْذُلَ جُهْدِى فى إِنْقاذِ صاحِبِها مِنْ مَأْزِقِهِ . »

٨ — حَدِيثُ الْحَطّابِ

ثُمَّ أَسْرَعَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » صَوْبَ الْجِهَةِ الَّتى انْبَعَثَتْ مِنْها الصَّيحاتُ ؛ حَتَّى إِذا بَلَغَ بُحَيْرَةَ « اللُّوتَسِ » ، لَمَحَتْ عَيْناهُ رَجُلًا يَلْبَسُ ثِيابَ

الْحَطَّابِينَ. وَلَمْ يَكَدْ « أَبُو الْحَجَّاجِ » يَدْنُو مِنْهُ، حَتَّى هَمَّ الرَّجُلُ بِالْفِرَارِ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ. ولٰكِنَّ « أَبَا الْحَجَّاجِ » قَالَ لَهُ مُتَلَطِّفًا :

« لا تَخْشَ مِنِّي شَيْئًا - أَيُّهَا الْغَرِيبُ - وحَدِّثْنِي بِحَدِيثِكَ لأَتَعَرَّفَ قِصَّتَكَ ؛ فَما جِئْتُ إِلَّا لإِنْقَاذِكَ مِنْ وَرْطَتِكَ. وَلَعَلِّي قَادِرٌ عَلَى تَخْفِيفِ أَلَمِكَ، وَدَفْعِ شِكَايَتِكَ. »

فَقَالَ لَهُ الْحَطَّابُ، وهُوَ شَارِدُ الْفِكْرِ :

« و أَسَفَاهُ، أَيُّهَا الْفِيلُ الْأَبْيَضُ النَّبِيلُ الْكَرِيمُ النَّفْسِ ! أَلَا لَيْتَكَ قَادِرٌ عَلَى إِغَاثَتِي وَإِنْقَاذِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ؛ فَقَدْ ضَلَلْتُ طَرِيقِي - مُنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ - فِي هٰذِهِ الْغَابَةِ الْوَاسِعَةِ الْمُوحِشَةِ، الَّتِي لا يَقْطُنُهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ، وَيَئِسْتُ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى مَدِينَةِ « بَنَارِسَ » ؛ فَمَنْ لِي بِمَنْ يَهْدِينِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ؟ »

فَقَالَ لَهُ « أَبُو الْحَجَّاجِ »، وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ سُرُورًا وَغِبْطَةً، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ :

« ما أَيْسَرَ ما تَطْلُبُهُ، أَيُّهَا الْحَطَّابُ. فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ظَهْرِي، لِأَحْمِلَكَ إِلَى حَيْثُ يَعِيشُ أَبْنَاءُ جِنْسِكَ مِنَ النَّاسِ. »

٩ – صَنِيعُ ٱلْفِيلِ

فَابْتَهَجَ الْحَطَّابُ بِذٰلِكَ أَشَدَّ الابْتِهاجِ ، وَقَفَزَ عَلَى ظَهْرِ ٱلْفِيلِ ٱلْأَبْيَضِ فَرِحًا مَسْرُورًا . ثُمَّ ٱنْطَلَقَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » يَعْدُو بِهِ مُسْرِعًا – خِلالَ ٱلْغابَةِ ٱلْواسِعَةِ ٱلْأَرْجاءِ – حَتَّى بَلَغا مَدِينَةَ « بَنارِسَ » .

فَقالَ لَهُ « أَبُو الْحَجَّاجِ » :

« لَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ – أَيُّها الْحَطَّابُ – إِلَّا بُرْهَةٌ قَلِيلَةٌ ، لِتَصِلَ إِلَى بَيْتِكَ ؛ فَإِنَّ مَدِينَةَ « بَنارِسَ » – كَما تَراها – قَرِيبَةٌ مِنْكَ ، وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَها إِلَّا خُطُواتٌ مَعْدُودَةٌ . »

فَهَمَّ ٱلْحَطَّابُ بِأَنْ يَشْكُرَ لِلْفِيلِ ٱلنَّبِيلِ هٰذِهِ ٱلْيَدَ الْبَيْضاءَ الَّتِي أَسْداها إِلَيْهِ ، إِذْ أَنْقَذَهُ مِنَ ٱلْهَلاكِ الْمُحَقَّقِ ، وَهَداهُ إِلَى ٱلطَّرِيقِ بَعْدَ أَنْ ضَلَّ . وَلٰكِنَّ « أَبا الْحَجَّاجِ » أَبْتَدَرَهُ قائِلًا :

« كَلَّا ، لا تَشْكُرْ لِي صَنِيعِي ؛ فَإِنِّي لَقَرِيرُ الْعَيْنِ ، مُنْشَرِحُ الصَّدْرِ بِما فَعَلْتُهُ ؛ فَقَدْ أَتَحْتَ لِي فُرْصَةً ثَمِينَةً ، لِأَداءِ واجِبِي فِي مُعاوَنَةِ بائِسٍ مَلْهُوفٍ ، وَإِنْقاذِ ضالٍّ حائِرٍ ، بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعَتْ بِهِ ٱلْأَسْبابُ . »

ثُمَّ عادَ « أَبُو الْحَجَّاجِ » إِلَى كَهْفِهِ الْبَعِيدِ ، وَهُوَ مُبْتَهِجٌ بِما أَسْداهُ إِلَى الْحَطَّابِ الْمِسْكِينِ مِنْ صَنِيعٍ . وَلَمْ يَدْرِ الْفِيلُ النَّبِيلُ ما يَخْبَؤُهُ لَهُ الْقَدَرُ مِنْ أَحْداثٍ وَخُطُوبٍ ، وَلَمْ يَدُرْ بِخَلَدِهِ أَنَّ الْخَيْرَ قَدْ يَجْلُبُ الشَّرَّ ، وَأَنَّ الْإِحْسانَ قَدْ يُجْزَى عَلَيْهِ بِالْإِساءَةِ وَالْجُحُودِ .

١٠ — غَدْرُ الْحَطّابِ

وَكانَ الْحَطَّابُ — لِسُوءِ حَظِّ « أَبِي الْحَجَّاجِ » — غادِرًا ، خَبِيثَ النَّفْسِ ، لَئِيمَ الطَّبْعِ . وَقَدْ وَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطانُ ، فَجَرَّهُ الطَّمَعُ إِلَى الْخَدِيعَةِ وَالْخِيانَةِ ، وَزَيَّنَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخَبِيثَةُ أَنْ يَغْدِرَ بِصاحِبِهِ ، وَيَجْزِيَهُ عَلَى إِحْسانِهِ أَقْبَحَ الْجَزاءِ .

وَلَمْ يَبْقَ فِي خاطِرِهِ أَنَّ « أَبا الْحَجَّاجِ » قَدْ أَنْقَذَهُ مِنْ حَيْرَتِهِ وَضَلالِهِ ، وَوَقاهُ عادِيَةَ الْهَلاكِ ، وَأَنَّهُ — لِذٰلِكَ — جَدِيرٌ بِالثَّناءِ ، لِبِرِّهِ بِهِ وَعَطْفِهِ عَلَيْهِ ؛ بَلْ شَغَلَهُ الطَّمَعُ عَنِ الوَفاءِ ، وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْغادِرَةُ أَنْ يَكْفُرَ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ ، وَيَجْحَدَ ذٰلِكَ الْإِحْسانَ ، فَقالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ :

« لَقَدْ هَلَكَ ٱلْفِيلُ ٱلْأَبْيَضُ ٱلَّذى كان فى قَصْرِ مَلِكِ « بَنارِسَ » ، قُبَيْلَ خُرُوجِى مِنَ ٱلْمَدِينَةِ بِأَيَّامٍ ، وَلا شَكَّ أَنَّ ٱلْمَلِكَ سَيُكافِئُنِي أَجْزَلَ مُكافَأةٍ ، إِذا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أُوقِعَ هٰذا الفِيلَ فى قَبْضَتِي أَسِيرًا ، وَأُقَدِّمَهُ لِلْمَلِكِ هَدِيَّةً ثَمِينَةً . »

وَما لَبِثَتْ هٰذِهِ ٱلْفِكْرَةُ ٱلْجارِمَةُ أَنْ أَصْبَحَتْ عَزْمًا وَتَصْمِيمًا ، فراحَ ٱلْحَطَّابُ يُنْعِمُ بَصَرَهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكَها « أَبُو ٱلْحَجَّاجِ » ، وَظَلَّ يُجِيلُ لِحاظَهُ فِي أَشْجارِها ٱلْعالِيَةِ ، وَتِلالِها ٱلْمُرْتَفِعَةِ ، وَهِضابِها الشَّاهِقَةِ ، الَّتِي يَمُرُّ عَلَيْها فِي أَثْناءِ السَّيْرِ ؛ حَتَّى لا يَضِلَّ طَرِيقَهُ إِذا هَمَّ بِالْعَوْدَةِ إِلَيْها مَرَّةً أُخْرَى . وَما زالَ كَذٰلِكَ حَتَّى حَذَقَها ، وَتَعَرَّفَ طَرائِقَها جَمِيعًا .

١١ — بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ

وَلَمْ يَكَدِ الْحَطَّابُ يَصِلُ إِلى « بَنارِسَ » ، حَتَّى مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ ، وَقالَ لَهُ مَسْرُورًا :

« لَقَدِ ٱهْتَدَيْتُ إِلَى ٱلْفِيلِ ٱلْأَبْيَضِ الْجَدِيرِ بِأَنْ يَحُلَّ مَكانَ

« أَبِى كُلْثُومٍ » : ذٰلِكَ الْفِيلِ الْهالكِ الذى فَقَدَهُ مَوْلاىَ ، وَحَزِنَ لِفَقْدِهِ حُزْنًا شَدِيدًا . »

وَظَلَّ الْخَطَّابُ يَصِفُ لِمَلِكِ « بَنارسَ » جَمالَ « أَبِى الْحَجَّاج » ، وَيُطْنِبُ لَهُ فِى تَعْدادِ مَزاياهُ وَمَناقِبِهِ ، حَتَّى أُعْجِبَ بِهِ الْمَلِكُ — عَلَى السَّماعِ — وَقالَ لِلْخَطَّابِ :

« لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نَفْسِى مِنَ الْحُصُولِ عَلَى هٰذا الْفِيلِ الظَّرِيفِ الَّذِى تَصِفُهُ لِى . فارْجِعْ إِلَى الْغابَةِ — مِنْ فَوْرِكَ — فِى عِصابَةٍ مِنْ مَهَرَةِ صَيَّادِى الْفِيَلَةِ الْمَشْهُورِينَ فِى مَدِينَتِى . وَمَتَى نَجَحْتُمْ فى صَيْدِ الْفِيلِ الْأَبْيَض ، فَإِنِّى مُكافِئُكَ وَمُكافِئُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ أَجْزَلَ مُكافَأَةٍ . »

١٢ — عِنْدَ بُحَيْرَةِ « اللُّوتَسِ »

فابْتَهَجَ الْخَطَّابُ بِما سَمِعَ ، وأَسْرَعَ — فى رَفاقَةِ الصَّيَّادِينَ — يَقُودُهُمْ فى شِعابِ الْغابَةِ ، ويُرْشِدُهُمْ إِلَى الطَّرائِقِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى كَهْفِ « أَبِى الْحَجَّاج » ، حَتَّى بَلَغُوا بُحَيْرَةَ « اللُّوتَس » بِلا مَشَقَّةٍ ، حَيْثُ

وجَدُوا « أَبا الْحَجَّاج » يَجْمَعُ أَلْفاكِهَةَ لِعَشاءِ أُمِّهِ الْعَجُوزِ .

وَلَمْ يَكَدْ « أبو الْحجّاج » يَسْمَعُ وَقْعَ خُطُواتِهِمْ ، حَتَّى رَفَعَ إِلَيْهِمْ رَأْسَهُ ، وَأَجالَ فِيهِمْ بَصَرَهُ ؛ فَلَمَحَ صاحِبَهُ الْحَطَّابَ بَيْنَ صَيَّادِى الْأَفْيالِ . فَأَدْرَكَ الفِيلُ الذَّكِيُّ أَنَّ الْحَطَّابَ قَدْ غَدَرَ بِهِ ، وَجازاهُ عَلَى مَعْرُوفِهِ أَلْأَمَ جَزاءٍ . وَتَحَقَّقَ لَهُ كَلامُ أُمِّهِ ، وندِمَ عَلَى مُخالَفَتِهِ نَصِيحَتَها الثَّمِينَةَ حِينَ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ .

١٣ — فِي الْأَسْرِ

وَأَرادَ « أَبُو الْحَجَّاج » أَنْ يَهْرُبَ ؛ حَتَّى لا يَقَعَ فِي قَبْضَتِهِمْ أَسِيرًا . ولٰكِنَّ الصَّيادِينَ الْأَذْكِياءَ الْمُدَرَّبِينَ عَلَى صَيْدِ الْفِيَلَةِ ، عَدَوْا فِي أَثَرِهِ وَضَيَّقُوا عَلَيْهِ مَسالِكَ الْهَرَبِ ، وَسَدُّوا مَنافِذَ الطَّرِيقِ ، وَبَذَلوا كُلَّ ما فِي وُسْعِهِمْ — مِنْ حِيلَةٍ وَمَهارَةٍ — حَتى أَوْقَعُوهُ فِي شِباكِهِمْ أَسِيرًا . ثُمَّ سارُوا بِهِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ « بَنارِسَ » ، مَسْرُورِينَ مَزْهُوِّينَ بِما وُفِّقُوا إِلَيْهِ مِنْ فَوْزٍ وانْتِصارٍ .

١٤ – حُزْنُ « أُمِّ شِبْلٍ »

وظَلَّتْ « أُمُّ شِبْلٍ » الْمِسْكِينَةُ جاثِمَةً فِي كَهْفِها تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ وَحِيدِها « أَبِي الْحَجَّاج » ، حَتى جاءَ اللَّيْلُ ولَمْ يَعُدْ إِلَيْها ؛ فَتَوَجَّسَتْ شَرًّا ، وَساوَرَتْ نَفْسَها الْهُمُومُ والْأَحْزان ، وخَشِيَتْ أَنْ يكُونَ قَدْ أصابَهُ سُوءٌ ، أَوْ لَحِقَ بِهِ أَذًى .

ولَمَّا طالَتْ غَيْبَةُ « أَبِي الْحَجَّاج » ، أَيْقَنَتْ « أُمُّ شِبْلٍ » الْعَجُوزُ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ أَسِيرًا فِي قَبْضَةِ الصَّيَّادِين ؛ فَوَلْوَلَتْ وَبَكَتْ ، وَظَلَّتْ تَنْدُبُ حَظَّها التَّاعِسَ ، وَتَقُولُ فى نَفْسِها مَحْزُونَةً مُتَحَسِّرَةً :

« الْوَيْلُ لى مِنْ بَعْدِكَ ، يا « أَبا الْحَجَّاج » . فَما أَدْرِى : كَيْفَ أَصْنَعُ بَعْدَ أَنْ فَقَدْتُ مَعُونَتَكَ ، وَحُرِمْتُ بِرَّكَ بِى ، وَعَطْفَكَ عَلَىَّ ؟ وَما أَعْرِفُ : كَيْفَ أَعِيشُ فى هٰذِهِ الْعُزْلَةِ ، وَلَيْسَ لى مَنْ يُطْعِمُنى تِلْكَ الْفاكِهَةَ الشَّهِيَّةَ ، أَوْ يَهْدِينِي إِلى بُحَيْرَةِ « اللُّوتَسِ » ، لأَرْوِىَ مِنْها ظَمَئِى إِذا عَطِشْتُ ؟ أَلَا إِنَّنِي – مِنْ بَعْدِكَ يا « أبا الْحَجَّاج » – لا شَكَّ هالِكَةٌ جُوعًا وَعطَشًا ، فى هٰذه الْبُقْعَةِ النَّائِيَة ! فَيا لَيْتَنا تَنَبَّأْنا

بِهٰذا الْمُصابِ قَبْلَ وُقُوعِه ، وَفَطَنَّا إلى هٰذِهِ الْكارِثَةِ ، وَعرَفْنا عَواقِبَ الْأُمُورِ قَبْلَ أنْ تَحُلَّ بِنا مُفاجِئَةً ، وَتَنْزِلَ بِنا عَلَى غِرَّةٍ . وَيا لَيْتَنا لَبِثْنا — حيْثُ كُنَّا — آمِنَيْنِ ، لا يُرَوِّعُنا عَدُوٌّ ، وَلا يَجْرُؤُ عَلَى الدُّنُوِّ مِنَّا كائِنٌ كان ! . . . »

١٥ — حُزْنُ « أَبِي الْحجَّاج »

أمَّا جَزَعُ « أبِي الْحَجَّاج » وحُزْنُه ، فَقَدْ فاقا جَزَعَ أُمِّهِ وحُزْنَها . فَلَقَدْ بَرَّحَ بِهِ الْوَجْدُ ، واشْتَدَّ بِهِ الْأَلَم ، لِوَحْدَةِ أُمِّهِ وَضَعْفِها ، وعَجْزِها عَنِ الْحَياةِ مِنْ بَعْدِه . وظَلَّ يَقُولُ فى نَفْسِه ، وهُوَ سائِرٌ فِي طَرِيقِهِ إلى حَيْثُ يَقُودُهُ صَيَّادُوهُ الْأَشِدَّاءُ :

« لَكِ اللهُ ، يا « أُمَّ شِبْلٍ » ! فَما أَدْرِى : كَيْفَ تُصْبِحِينَ فى مَحَلِّكِ بَعْدِى ، أَيَّتُها الْأُمُّ الْحَنُونُ الْبارَّةُ ؟ ألا لَيْتَنى أَصْغَيْتُ إلى نَصِيحَتِكِ ، وَقَبِلْتُ رَأْيَكِ ، وَلَمْ أُخالِفْ مَشُورَتَكِ . إذَنْ غَنِمْتُ السَّلامَةَ والتَّوْفِيق ، وَنَجَوْتُ مِنَ الْغَدْرِ والْجُحُود .

لَقَدْ حَذَّرْتِنى — يا أُمَّاهُ — كَيْدَ الْإنْسانِ وجُحُودَه ؛ فَلَمْ أُصْغِ

إلى نصيحَتِك ، وَلَمْ أَنْتفعْ بِتَحْذِيرِك . وَلَوْ أَنِّي سَمِعْتُ مَقالَتَك ، وأَخَذْتُ بِرَأْيِكِ السّديد ؛ لَعِشْتُ طُولَ عُمْرِى هانِئًا وادِعًا ، ناعِمًا بِالْحُرِّيَّةِ بِجِوارِك ، وَلَمْ أَقَعْ فى قَبْضَةِ هٰؤُلاء الْأَشْرارِ الْغادِرِين .

وَما أَدْرِى : كَيْفَ تَصْنَعِين — يا أُمّاه — بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعَتْ بِكِ أَسْبابُ الْحَياة ، وَفَقَدْتِ ناصِرَكِ الْوَفِيَّ الْأَمِينَ ، وحُرِمْتِ وَلَدَكِ الصَّادِقَ الْمُعِينَ ؟ . . . »

١٦ — مُكافأَةُ الْمَلِكِ

وَلَمَّا مَثَلَ الصَّيَّادُونَ والْحَطّابُ بَيْنَ يَدَىِ الْمَلِكِ ، وَمَعَهُمُ الْفِيلُ الْأَبْيَضُ ، أُعْجِبَ الْمَلِكُ بِمَنْظَرِه ، وسُرَّ بِهِ سُرُورًا عَظِيمًا . وكانَتْ أَماراتُ الْكَآبَةِ والْحُزْنِ بادِيَةً عَلَى مَلامِحِ « أَبِى الْحَجّاج » ، ولٰكِنَّها لَمْ تَنَلْ مِنْ جَمالِ شَكْلِه ، وبَهاء مَنْظَرِه ؛ فَقالَ الْمَلِكُ :

« ما أَجْمَلَهُ فِيلًا رائِعَ الْمَنْظَرِ ، بَهِيَّ الْمَلامِح ، مُشْرِقَ الطَّلْعَةِ ! فَلَأَتَّخِذَنَّهُ — مُنْذُ الْيَوْم — مَرْكَبِى ؛ فَهُوَ أَفْخَمُ فِيلٍ رَأَيْتُهُ أَوْ سَمِعْتُ بِهِ فى حَياتِى . »

ثُمَّ أَجْزَلَ الْمَلِكُ مُكافَأَةَ الْحَطَّابِ والصَّيَّادِين ، وأَمَرَ أَتْباعَهُ أَنْ يَتَخَيَّرُوا أَحْسَنَ مَكانٍ فى الإِصْطَبْلِ الْمَلَكِيِّ ؛ لِيَحُلَّ فِيهِ « أَبُو الْحَجّاج »، كما أَمَرَهُمْ أَنْ يُحَلُّوهُ بِأَثْمَنِ اللآلِئِ وأَنْفَسِ الْيَواقِيت .

١٧ — مَرَضُ « أَبِى الْحَجَّاج »

وَمَرَّتْ عَلَى هٰذا الْحادِثِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ ، ثُمَّ أَرادَ الْمَلِكُ أَنْ يَرْكَبَ الْفِيلَ الأَبْيَضَ ، وَيَطُوفَ بِهِ فى الْمَدِينَةِ ؛ فَقالَ لَهُ أَتْباعُهُ ، والْحُزْنُ بادٍ عَلَى وُجُوهِهِم :

« إِنَّ الْفِيلَ الأَبْيَضَ — يا مَوْلانا — قَدْ مَرِضَ مَرَضًا خَطِيرًا ، وأَنْتابَهُ ضَعْفٌ شَدِيد ، وَهُو — مُنْذُ حَضَرَ أَرْضَنا — لَمْ يَذُقْ طَعامًا وَلا شَرابًا . وَقَدْ تَخَيَّرْنا لَهُ أَشْهَى الأَطْعِمَةِ والأَشْرِبَةِ مِنَ الْفاكِهَةِ والْحَشائِش ، فَلَمْ يَذُقْ مِنْها شَيْئًا . »

فارْتاعَ الْمَلِكُ لِهٰذا النَّبَإِ ، وَأَسْرَعَ — فى الْحال — إِلَى الإِصْطَبْلِ ؛ فَرَأَى عَلَى وَجْهِ « أَبِى الْحَجّاج » سِيما الْكَدَرِ والْهَمِّ ، فَصاحَ بِهِ قائِلًا :

« ما بالُكَ — أَيُّها الْفِيلُ الْكَرِيمُ — قَدْ تَغَيَّرَتْ مَلامِحُك ، وَسِيءَ

وَجْهُك ، وَتبدَّلَتْ أطْوارُكَ ؟ أىُّ شَىْءٍ بَغَّضَ طَعامَنا وَشَرابَنا إلَيْك ؟ أتُرَى خَدَمى قَدْ أهْمَلُوا ٱلعِنايةَ بِأَمْرِك ؟ أَمْ تُراهُم قَصَّرُوا فى تَخَيُّر ما يُرْضِيكَ مِنْ لَذائِذِ الْأَطْعِمَةِ الَّتى تَشْتَهِيها نَفْسُك ؟ »

١٨ — شَكْوَى « أَبِى الْحَجَّاج »

فَهزَّ « أَبُو الْحَجَّاج » رَأْسَهُ الضَّخْمَ ، وَقالَ بِصَوْتٍ خافِتٍ ، قَدِ ارْتَسَمَتْ فيهِ نَبَراتُ الْحُزْنِ والْأَسَى :

« كَلَّا ، يا مَوْلاى ! »

فَقالَ لَهُ الْمَلِك ، وَقَدِ اشْتَدَّ شَوْقُهُ إلى تَعَرُّفِ قِصَّتِه :

« خَبِّرْنى — فِى صَراحَةٍ — أَيُّها ٱلفِيلُ الْكَرِيمُ عَنْ سِرِّ هَمِّكَ وَاكْتِئابِك؛ فَإِنِّى باذِلٌ جُهْدِى فى إسْعادِكَ وَتَحْقيقِ أُمْنِيَّتِك ، إذا وَجَدْتُ إلى ذٰلِكَ سَبِيلًا . »

فَقالَ « أَبو الْحَجَّاج » فِى لَهْجَةٍ حَزِينَةٍ :

« شُكْرًا لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ الْعَظِيمُ عَلَى عِنايَتِكَ بِأَمْرِى ، واهْتِمامِكَ بِشَأْنى . وَلَقَدْ سَأَلْتَنى عنْ مَصْدَرِ حُزْنِى ، واقْتَرَحْتَ

عَلَىَّ أَنْ أَتَمَنَّى عَلَيْكَ الْأَمانِىَّ . وَلَيْسَ لى منْ أُمْنِيَّةٍ فى هٰذِهِ الْحياةِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ أَعُودَ إلى أُمِّىَ الْعَجُوزِ التَّاعِسَةِ الْعَمْياء ، الَّتى تَرَكْتُها فى الْغابَةِ وَحيدَةً لا عائِلَ لها ، وَهِىَ تُوشِكُ أَنْ تَهْلِكَ جُوعًا وَعَطشًا فى كَهْفِها . وَلَنْ أَطْعَمَ شَيْئًا بَعْدَها ، ولَنْ أَسْتَسِيغَ الزَّادَ وهِىَ تَتَضَوَّرُ جُوعًا ، وَلا تَجِدُ إلى الطَّعامِ سَبيلًا . »

فَسَأَلَهُ مَلِكُ « بَنارِسَ » عَنْ قِصَّتِه ؛ فَحَدَّثَهُ بها كُلِّها ، وَأَخْبَرَهُ بِانْتِقالِهِ هُوَ وَأُمُّهُ إلى مَكانٍ بَعيدٍ عَنْ قَطيعِ الْفِيَلَة ، وكَيْفَ عاشَ مَعَ أُمِّهِ أَسْعَدَ عَيْشٍ فى عُزْلَةٍ وادِعَةٍ هَنيئَةٍ ؛ حَتَّى جاءَهُما الْحَطّابُ ، وَكانَ مَقْدَمُهُ عَلَيْهِما شُؤْمًا وَخَرابًا ؛ فَكَدَّرَ صَفْوَ عَيْشِهِما الرَّغيدِ بِخِيانَتِهِ وَغَدْرِه .

١٩ — الْفَكاكُ مِنَ الْأَسْرِ

كانَ مَلِكُ « بَنارِسَ » عادِلًا رَحيمًا ، يُؤْثِرُ الْإِنْصافَ ، وَيَرْتاحُ لِلْمَعْرُوفِ ؛ فَقالَ لِلْفيلِ الْأَبْيَضِ ، عَلَى شَغَفِهِ بِهِ ، وَرَغْبَتِهِ فى اسْتِبْقائِهِ : « أَيُّها الْحَيَوانُ النَّبيلُ ! إنَّ طِيبَةَ قَلْبِكَ ، وَحُسْنَ طَوِيَّتِكَ ، قَدْ

أَظْهَرا — أَمامِى — خِسَّةَ الْجِنْسِ الآدَمِىِّ وَغَدْرَهُ . وَقَدْ أَطْلَقْتُ سَراحَكَ — مُنْذُ الآنَ — فعُدْ إِلَى أُمِّكَ وَارْعَها ، وَتَوَلَّ أَمْرَها ، وَثابِرْ عَلَى بِرِّكَ بِها ، وَعَطْفِكَ عَلَيْها ما حَييتَ . »

فَشَكَرَ لَهُ « أَبُو الْحَجَّاج » عَدالَتَهُ وكَرَمَه وَإِحْسانَه ، وقال له مُغْتَبِطًا فَرْحانَ : « لَنْ أَنْسَى لَكَ هٰذا الْجَمِيلَ ! »

٢٠ — اجْتِماعُ الشَّمْلِ

ثُم أَسْرَعَ « أَبو الْحَجَّاج » فِى طَرِيقِهِ إِلى كَهْفِ أُمِّهِ ، عَلَى ما بِهِ مِنْ ضَعْفٍ وهُزالٍ ، وجُوعٍ وعَطَشٍ . وَلا تَسَلْ عَنْ فَرَحِهِ وَابْتِهاجِهِ حِينَ رَأَى أُمَّهُ لا تَزالُ عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ . وَلا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ « أُمِّ شِبْلٍ » بِوَلَدِها حِينَ عادَ إِلَيْها بَعْدَ يَأْسٍ مِنْ عَوْدَتِهِ !

وَلَمْ يَكَدْ يَسْتَقِرُّ بِهِ الْمُقامُ ، حَتَّى قَصَّ عَلَى أُمِّهِ كلَّ ما حَدَثَ لَهُ فى أَثْناءِ غَيْبَتِهِ . فقالَتْ لهُ مُتَأَلِّمَةً :

« لَقَدْ كان عليكَ — يا وَلَدى — أَن تُصْغِىَ إِلَى نَصيحتى ! فهلْ آمَنْتَ الآنَ بِغَدْرِ الآدَمِيِّينَ ، وجُحُودِ بَنِى الْإِنْسانِ ؟ وهَلْ أَدْرَكْتَ

أَنَّ سُوءَ النِّيَّةِ – كَما حَدَّثْتُكَ – مُتَأَصِّلٌ فِي نُفُوسِهِمْ مُنْذُ الْقِدَمِ ؟ »

فقال لَها « أَبو الْحَجَّاج » :

« لَيْسُوا جَمِيعًا خَوَنَةً وَغادِرِينَ – يا أُمَّاهُ – فَإِنَّ فِيهِمُ الطَّيِّبَ وَالْخَبِيثَ ، وَالْمُحْسِنَ وَالْمُسِيءَ . وَلَوْلا أَنَّ مَلِكَ « بَنارِسَ » عادِلٌ رَحِيمٌ ، سَرِيُّ النَّفْسِ ، لَما وَجَدْتُ إِلَى الْفَكاكِ مِنْ أَسْرِي سَبِيلًا طُولَ الْحَياةِ .

وَما أَحْسَنَ أَنْ نَنْسَى – يا أُمَّاهُ – غَدْرَ الْحَطّابِ ، ولا نَذْكُرَ إِلَّا كَرَمَ الْمَلِكِ وَإِحْسانَهُ ؛ فَإِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ . »

٢١ – خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَقَدْ بَرَّ « أَبو الْحَجَّاج » بِما قالَ ، وَنَسِيَ – مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ – غَدْرَ الْحَطَّابِ وَخِيانَتَهُ ، وَجُحُودَهُ وَإِساءَتَهُ .

وَلٰكِنَّهُ ظَلَّ – حَياتَهُ كُلَّها – يَذْكُرُ صَنِيعَ مَلِكِ « بَنارِسَ » ، وَيَشْكُرُ لَهُ مَعْرُوفَهُ الَّذِي أَسْداهُ ، وَلا يَنْساهُ .

القصة التالية : صياد الغزلان

صَيَّادُ الْغِزْلان

١ — فاتِحَةُ الْقِصَّةِ

كانَ الْكاتِبُ الْقَصَصِيُّ الْفَرَنْسِيُّ « إسكندرُ دِيماس » يَجُولُ فى بلادِ « سويسرا » الْجَمِيلَةِ ، وَمَعَهُ مُرْشِدٌ يَصْحَبُهُ فِى أَثْناءِ سِياحَتِهِ وتَجْوالِهِ . وَفى ذاتِ يَوْمٍ قَصَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ الْأُسْطُورَةَ التَّالِيَةَ : أُسْطُورَةَ « صَيَّادِ الْغِزْلانِ » (والأُسْطُورَةُ هِىَ : الْقِصَّةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِى لا يُعْرَفُ أَصْلُها) .

وَهٰذِهِ الْأُسْطُورَةُ مِثالٌ مِنَ الْأَساطِيرِ الشَّائِعَةِ بَيْنَ طَبَقاتِ الْعامَّةِ فِى بِلادِ « أَوْرُبَّةَ » . وَقَدْ أُعْجِبَ الْكاتِبُ الْقاصُّ بِخَيالِ هٰذِهِ الْأُسْطُورَةِ ، ومَغْزاها الرَّائِعِ ، وَرَأَى فِيها دَرْسًا جَلِيلًا ، وَعِظَةً بالِغَةً ، لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالْغَدْرِ ، وَيُغْرِيهِ طَمَعُهُ بِنَقْضِ الْعَهْدِ ؛ فَتَسُوءُ عُقْباهُ ، وَيَحْدُرُهُ ذٰلِكَ إِلَى قَرارِ الْهاوِيَةِ .

٢ — فى ذِرْوَةِ الْجَبَلِ

قال « دِيماسُ » :

« كُنْتُ أَرْتَقِى بعضَ الْجِبال الْعالِيَةِ ، وَأُصَعِّدُ فِى شَمارِيخِ الذُّرَى (رُءُوسِ الْجِبالِ) ، وَمَعِى دَلِيلٌ أمِينٌ ، خَبِيرٌ بِالطَّرِيقِ ، عارِفٌ بِأَساليبِها وَمُنْعَرِجاتِها ، وَسُهُولِها وَحُزُونِها . فَلَمَّا بَلَغْنا ذِرْوَةَ الْجَبَلِ ، صَعِدَ بِى ذٰلِكَ الدَّلِيلُ قِمَّةَ صَخْرَةٍ عالِيَةٍ ، مُشْرِفَةٍ عَلَى أَحَدِ الْوِدْيانِ السَّحِيقَةِ (وَهِىَ : الطُّرُقُ الْمُنْخَفِضَةُ بَيْنَ كُلِّ جَبَلَيْنِ) . ولَمَّا بَلَغْنا تِلْكَ الْقِمَّةَ الشَّاهِقَةَ — وَهِىَ مُرْتَفِعَةٌ عَنْ أَرْضِ الْوَادِى بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ آلافِ قَدَمٍ — قَصَّ الدَّلِيلُ عَلَىَّ هٰذِهِ الْأُسْطُورَةَ الْجَمِيلَةَ ، وَهُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ تَصْدِيقِها وَتَكْذِيبِها ، كَما تَنُمُّ بِذٰلِكَ لَهْجَتُهُ فى قَصِّها ، وَتَشَكُّكُهُ فى أَثْناءِ رِوايَتِها عَلَىَّ .

وَإِلَيْكَ حَدِيثَ الدَّلِيلِ :

٣ — شَيْخُ الْجَبَلِ

عَلَى قِمَّةِ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ الشَّاهِقَةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى الْوادِى السَّحِيقِ ،

كانَ شَيْخُ الْجَبَلِ يَقْطُنُ فى الْأَزْمانِ السَّابِقَةِ .

وَكانَ هٰذا الشَّيْخُ شَفِيقًا ، رَحِيمًا بِالنَّاسِ ، يُحِبُّ الْخَيْرَ والْبِرَّ ، وَيَمْقُتُ الْأَذَى وَالشَّرَّ . وَلَمْ يَكُنْ يَلْقَى بائِسًا — فى طَرِيقِهِ — إلّا أَعانَهُ وَأَرْضاهُ ، وَلا مُعْوِزًا إلّا أَغاثَهُ وَأَغْناهُ .

وَلٰكِنَّهُ — عَلَى ذٰلِكَ — كان يُؤْثِرُ الْأَخْيارَ ، وَيَمْقُتُ الْأَشْرارَ ، وَيُعْجَبُ بِالصَّادِقِينَ ، وَيَكْرَهُ الْكَذِبَ وَذَوِيهِ ، وَلا يُعِينُ إلّا مَنْ يَتَوَسَّمُ فيهِ حُبَّ الِاسْتِقامَةِ وَالصَّلاحِ .

٤ — الصَّيَّادُ والظَّبْيَةُ

وكانَ يَعِيشُ فِى هٰذِهِ الْبِلادِ — فِى ذٰلِكَ الزَّمَنِ الْغابِرِ — صَيّادٌ فَقِيرٌ ، لا يَظْفَرُ بِالْقُوتِ إلّا بِشِقِّ النَّفْسِ ، شَأْنُ أَمْثالِهِ مِنَ الصَّيّادِينَ الَّذِينَ يَقْطُنُونَ الْجِبالَ ، وَيَحْتَرِفُونَ الصَّيْدَ ، وَيَعِيشُونَ عَلَى ما يَصْطادُونَهُ فى هٰذِهِ الْأَنْحاءِ .

وَفِى ذاتِ يَوْمٍ خَرَجَ الصَّيّادُ — عَلَى عادَتِهِ — وظَلَّ يَرْتادُ الْجَبَلَ حَتَّى سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ ؛ إذْ رَأَى أمامَهُ ظَبْيَةً تَسْعَى إلى رِزْقِها .

فابْتَهَجَ الصَّيّادُ بِهٰذِهِ الفُرْصَةِ ، وَجَعَلَ يَقْتَرِبُ مِنَ الظَّبْيَةِ ، حَتّى إذا داناها أحسّتْ وَقْعَ خُطُواتِه ، فَأَسْرَعَتْ بِالْفِرارِ ، وَجَرَتْ — مِنْ فَوْرِها — بِأَقصَى سُرْعَتِها .

فَمَضَى الصَّيّادُ خَلْفَ الظَّبْيَةِ ، حتّى بَلَغا هٰذِهِ الصَّخْرَةَ الْعالِيَةَ .

فَوَقَفَتِ الظَّبْيَةُ مُتَرَدِّدَةً حائرَةً — بَعْدَ أَنْ سُدَّتْ أمامَها مَسالِكُ الْهَرَبِ — وَلَمْ يَبْقَ لَها خَلاصٌ مِنْ يَدِ الصَّيّادِ إلّا أنْ تَهْوِيَ مِنْ ذٰلِكَ العُلُوِّ الشّاهِقِ إلى الْوادِي السَّحِيقِ ، فَتَلْقَى حَتْفَها وَشِيكًا .

٥ — الصَّيّادُ وَشَيْخُ الْجَبَلِ

وَلَبِثَتِ الظَّبْيَةُ فى مَكانِها ، تتوَقَّعُ حَيْنَها (مَوْتَها) — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — وَظَلَّتْ تَنْظُرُ إلَى الصَّيّادِ وَهُوَ يُدانِيها ، وَقَدْ سَرَتْ فِيها رِعْدَةٌ مِنَ الْخَوْفِ ، وارْتَسَمَ الْحُزْنُ عَلَى أسارِيرِ وَجْهِها . وَكانَ مَنْظَرُها مُؤَثِّرًا ، وَضَعْفُها ظاهِرًا ، وَلٰكِنَّ الصَّيّادَ لَمْ يَرْثِ لَها ، وَلَمْ يَرْحَمْ ضَعْفَها ، وَأَبَى إلّا صَيْدَها ؛ فَأَسْلَمَتِ الظَّبْيَةُ أَمرَها لِلّهِ ، وَلَمْ تَرَ لَها حِيلَةً فِي مُدافَعَةِ هٰذا الْبَلاءِ .

وَأَمْسَكَ الصَّيَّادُ بِقَوْسِهِ، وَصَوَّبَهَا إِلَيْهَا . وَلَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ، حَتَّى رَأَى شَيْخًا حَسَنَ السَّمْتِ ، جَمِيلَ الْمَنْظَرِ ، قَادِمًا عَلَيْهِ ؛ فَكَفَّ الصَّيَّادُ عَمَّا كَانَ يَهُمُّ بِهِ ، لِيَعْرِفَ جَلِيَّةَ خَبَرِهِ .

ثم جَلَسَ الشَّيْخُ إلى جانِبِ الظَّبْيَةِ ؛ فارْتَمَتِ الظَّبْيَةُ تَحْتَ قَدَمَيِ الشَّيخِ ضارِعَةً إِلَيْهِ ، مُسْتَغِيثَةً بِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الشَّيْخُ يُطَمْئِنُها ، وَيُزِيلُ مِنْ مَخاوِفِها ، وَيُرَبِّتُها ، حَتَّى سَكَّنَ مِنْ رَوْعِها (فَزَعِها) .

٦ — حِوارُ الشَّيْخِ

ثُمَّ الْتَفَتَ الشَّيْخُ إِلَى الصَّيَّادِ ، وقالَ لَهُ :

« ما الَّذِى جاءَ بِكَ إلى هُنا ؟ وَماذا أَقْدَمَكَ عَلَيْنا مِنْ وادِيكَ الْبَعِيدِ ؟

أَمَا كانَ لَكَ فى أَرْضِ ذٰلِكَ الْوَادِى الْفَسِيحَةِ مَجالٌ واسِعٌ لِلصَّيدِ والْقَنْصِ ؟

وَكَيْفَ جَرُؤْتَ على مُطارَدَةِ هٰذِهِ الظَّبْيَةِ الْمِسْكِينَةِ الْوادِعَةِ ؟ وبِأَىِّ حَقٍّ تُرَوِّعُها وَتُفَزِّعُها ؟

لَقَدْ تَرَكْتُكَ آمِنًا فِي وادِيكَ ، وَلَمْ أَنْزِلْ إِلَى أَرْضِكَ ، وَأَبَى لِي شَرَفِي وَمُرُوءَتِي أَنْ أَعْتَدِيَ عَلَى ما تَحْوِيهِ بُيُوتُكُمْ – مَعْشَرَ الإِنْسِ – مِن دَجاجٍ وَماشِيَةٍ . فَما بالُكُمْ تُزْعِجُونَنا فِي دِيارِنا ، وَتَعْتَدُونَ عَلَى ظَبْياتِنا وَغِزْلانِنا ، وَتُبَدِّلُونَ أَمْنَها خَوْفًا ، وَسُرُورَها حُزْنًا ؟ »

فَأَدْرَكَ الصَّيَّادُ أَنَّ ذٰلِكَ الشَّيْخَ الَّذِي يُحَدِّثُهُ وَيَعْنُفُ عَلَيْهِ فِي الْكَلامِ ، إِنَّما هُوَ شَيْخُ الْجَبَلِ ، الَّذِي ذاعَ اسْمُهُ فِي الْبِلادِ ، وَاسْتَفاضَ صِيتُهُ فِي الآفاقِ .

فَقالَ لَهُ الصَّيَّادُ : « صَدَقْتَ – يا سَيِّدِي الشَّيْخَ – فِيما قُلْتَ ، وَإِنِّي مُقِرٌّ بِخَطَئِي ، مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِي .

عَلَى أَنَّنِي لَمْ أُقْدِمْ – عَلَى فَعْلَتِي هٰذِهِ – إِلَّا مُضْطَرًّا . فَإِنَّنِي – كَما تَرَى – رَجُلٌ فَقِيرٌ بائِسٌ ، لا أَمْلِكُ فِي بَيْتِي دَجاجًا وَلا ماشِيَةً كَما ظَنَنْتَ . وَلَوْ كانَ عِنْدِي ما أَقْتاتُ بِهِ لَما رَوَّعْتُ هٰذِهِ الظَّبْيَةَ الوادِعَةَ الآمِنَةَ . وَلٰكِنَّ الْحاجَةَ تَدْفَعُ الإِنْسانَ إِلَى الْمَهالِكِ ، وَالْمُضْطَرُّ يَرْكَبُ الصَّعْبَ مِنَ الأُمُورِ ، وَلَوْ كَفَفْتُ عَنِ الصَّيْدِ وَالْقَنْصِ لَهَلَكْتُ جُوعًا ! » .

٧ – هَدِيَّةُ الشَّيْخِ

فَرَقَّ لَهُ قَلْبُ الشَّيْخِ، وَتَأَلَّمَ لِشَكْواهُ أَشَدَّ الْأَلَمِ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ ، وَيُرَبِّتُهُ ، وَيَقُولُ لَهُ :

« لا عَلَيْكَ – يا وَلَدِي – فَلَنْ تَلْقَى مِنِّي شَرًّا ولا أَذًى وَسَأَكْفُلُ لَكَ حَياةً هَنِيئَةً ، وعِيشَةً رَغَدًا ، بَعْدَ أَنْ تُعاهِدَنِي عَهْدًا وَثِيقًا عَلَى أَنْ تَتْرُكَ الْوُحُوشَ وادِعَةً آمِنَةً ؛ فَلا تَمَسَّها بِسُوءٍ بَعْدَ الْيَوْمِ . »

ثُمَّ حَلَبَ الشَّيْخُ مِنْ لَبَنِ تِلْكَ الظَّبْيَةِ فِي صُنْدُوقٍ مِنَ الْخَشَبِ ، وَصَبَرَ عَلَيْهِ قَلِيلًا حَتَّى أَصْبَحَ جُبْنًا ، ثُمَّ أَعْطاهُ الصُّنْدُوقَ – بِما يَحْوِيهِ مِنْ جُبْنٍ – وقالَ لَهُ :

« هاكَ – يا وَلَدِي – طَعامَكَ الَّذِي تَنْشُدُهُ وتَسعَى إليهِ ؛ فاحْتَفِظْ بِهٰذا الصُّنْدُوقِ فِي بَيْتِكَ ، وكُلْ مِنْهُ ما تَشاءُ ؛ فَلَنْ يَنْفَدَ هٰذا الزَّادُ مَهْما تَأْكُلْ مِنْهُ ، مَتَى عاهَدْتَنِي عَلَى تَأْمِينِ الْوُحُوشِ .

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذا أَخْلَفْتَ مَعِي وَعْدَكَ ، نَفِدَ الزَّادُ ، وَحَقَّ عَلَيْكَ الْعِقابُ ؛ فَماذا أَنْتَ قائِلٌ ؟ »

فَشَكَرَ الصَّيَّادُ لِشَيْخِ الْجَبَلِ هَدِيَّتَهُ ، وَقالَ لهُ :

« أُقْسِمُ لَكَ — يا سَيِّدى — إنِّى مُعاهِدُكَ عَلَى ذٰلِكَ ، وَسَتَرَانِى ثابِتًا عَلَى الْعَهْدِ حتَّى أمُوتَ . فَإذا حَنِثْتُ فِى يَمِينِى ، أَوْ نَقَضْتُ عَهْدِى ، كُنْتُ جَدِيرًا بِالْهَلاكِ . »

٨ — فى الْوادِى

ثُمَّ عادَ الصَّيَّادُ إلى مَأْواهُ ، بَعْدَ أنْ وَدَّعَ شَيْخَ الْجَبَلِ ، شاكِرًا لَهُ صَنِيعَهُ وَمُرُوءَتَهُ ، وَعاشَ زَمنًا طَوِيلًا يَأْكُلُ مِن ذٰلِكَ الصُّنْدُوقِ ، دُونَ أنْ يَنفَدَ ما فيهِ مِنَ الزَّادِ . وَكانَ يَرَى ذٰلِكَ الطَّعامَ الشَّهِىَّ مُتَجَدِّدًا سائِغًا ، لا تَمَلُّهُ النَّفْسُ ، وَلا يَضْجَرُ بِهِ الْآكِلُ .

وَكانَ فِى كُلِّ يَومٍ يَأْكُلُ مِنْ هٰذا الزَّادِ ؛ فَيَسْتَمْرِئُهُ وَيَتَشَهَّاهُ ، وَيُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّهُ أطْيَبُ طَعامٍ تَذَوَّقَهُ فى حَياتِهِ .

وَكَفَّ الصَّيَّادُ — مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَومِ — عَنْ صَيْدِ الْوُحُوشِ ؛ فاطْمَأنَّتِ الظِّباءُ إلَيهِ ، وَوَثِقَتْ بِهِ ، وَلَم تَعُدْ تَخْشَى مِنهُ شَرًّا وَلا أذًى ، وَأصْبَحَتْ تَأْلَفُهُ وتُدانِيهِ ، وَتَسْتَرسِلُ إلَيهِ وادِعَةً آمِنَةً .

٩ — نَقْضُ الْعَهْدِ

وَذاتَ مَساءٍ رأَى الصَّيَّادُ ظَبْيَةً تُماشِيهِ ؛ فَساوَرَهُ الطَّمَعُ ، وَوَسوَسَ لهُ الشَّيْطانُ أنْ يَنْقُضَ عَهْدَهُ . وَلٰكِنَّهُ ذَكَرَ ما قالَهُ شَيْخُ الْجَبَلِ ، وَخَشِيَ وَعِيدَهُ ؛ فَعدَلَ عَنْ فِكْرَتِهِ .

وَما زالَتِ الظَّبْيَةُ تَقْتَرِبُ مِنْهُ ، وتدُورُ حَوْلَهُ ، حَتَّى أَغْرَتْهُ بِصَيْدِها ، وَاشْتَهَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَقْتَنِصَها ، وَغَلَبَهُ الطَّمَعُ عَلَى أَمْرِهِ ، وَأَنْساهُ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ نَفْسَهُ بِهِ ؛ فَمَضَى يَنْقُضُهُ دُونَ أنْ يَتَدَبَّرَ الْعُقْبَى ، وَيَحْسَبَ لَها حِسابًا .

أَجَلْ ، نَسِيَ الصَّيَّادُ حِوارَ شَيْخِ الْجَبَلِ ؛ فَصَوَّبَ سِهامَهُ إِلَى الظَّبْيَةِ الآمِنَةِ فَقَتَلَها — مِنْ فَوْرِهِ — ثُمَّ أَسْرَعَ إِلَيْها فَحَمَلَها إِلَى دارِهِ ، وَسَلَخَ جِلْدَها ، وَأَخَذَ مِن لَحْمِها قِطْعَةً كَبِيرَةً فَشَواها وَتَعَشَّى بِها .

١٠ — الْقِطَّةُ السَّوْداءُ

وَلَمَّا ذَهَبَ إِلى الصُّنْدُوقِ لِيَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا مِنَ الزَّادِ ، خَرَجَتْ

قِطَّةٌ سَوْداءُ ، لَها عَيْنانِ وَرِجْلانِ تُشْبِهُ عُيُونَ الرِّجالِ وأَرْجُلَهُمْ وَقَدِ الْتَقَمَتْ قِطْعَةَ الْجُبْنِ فى فَمِها ، ثُمَّ قَفَزَتْ إلى النَّافِذَةِ مُسْرِعَةً فِي مِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ .

• • •

وَمُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ عادَ الْقَلَقُ إلى نَفْسِ الصَّيَّادِ ، وَساوَرَهُ الْأَسَى ، وَكادَ الْهَمُّ يَقْتُلُهُ ، وَنَدِمَ عَلَى فَعْلَتِهِ بَعْدَ فَواتِ الْفُرْصَةِ .

وَكَفَّتِ الظِّباءُ عَنِ النُّزُولِ إلَى الْوادِى — بَعْدَ هٰذا الْحادِثِ — وَاضْطُرَّ الصَّيَّادُ إلى مُطارَدَتِها فِي التِّلالِ وَالْهِضابِ .

١١ — مَصْرَعُ الصَّيَّادِ

وَمَرَّتْ — عَلَى ذٰلِكَ — سَنَواتٌ ثَلاثٌ كامِلَةٌ . وَجَرَى الصَّيَّادُ خَلْفَ ظَبْيَةٍ ، حَتَّى بَلَغَا ذِرْوَةَ الْجَبَلِ ، واسْتَقَرَّتِ الظَّبْيَةُ عَلَى الصَّخْرَةِ الْعالِيَةِ ، الَّتِي الْتَقَى فيها الصَّيَّادُ وَشَيْخُ الْجَبَلِ فيما مَضَى .

فَصَوَّبَ الصَّيَّادُ سِهامَهُ إلى الظَّبْيَةِ فَجَرَحَها ، وَما لَبِثَتْ أَنْ هَوَتْ إلى الْوادِى السَّحِيقِ . وَلَمْ يَكَدِ الصَّيَّادُ يَهُمُّ بِالنُّزُولِ إلى الوادِى لِأَخْذِ

تِلكَ الظَّبْيَةِ ، حَتَّى ظَهَرَ أَمامَهُ شَيْخُ الْجَبل ، وقالَ لَه :

« كَيْفَ نَسِيتَ وَعْدَك ، وَنَقَضْتَ عَهْدَك ؟ »

• • •

فَخَجِلَ الصَّيَّادُ مِمَّا فَعَل ، وَتَمَلَّكَهُ الْفَزَعُ ، وَهَمَّ بِالْهَرَب .

وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَكَدْ يَفْعَلُ ، حَتَّى ناداهُ شَيْخُ الْجَبَل ، وَكَرَّرَ اسْمَهُ مَرَّاتٍ ثَلاثًا . فامْتَلأَتْ نَفْسُ الصَّيَّادِ رُعْبًا ، حِينَ سَمِعَ النِّداءَ الثَّالِثَ ؛ وَصاحَ — مِنْ فَرْطِ الْخَوْفِ — صَيْحَةً عالِيَةً ، سَمِعَها أَهْلُ الْوادِي وَساكِنُوه . وَأَذْهَلَهُ الْفَزَعُ والرُّعْبُ عَنْ أَنْ يَتَماسَكَ فِي وَقْفَتِه ؛ فَزَلَّتْ قَدَمُه ، وَهَوَى — مِنْ فَوْرِه — مُتَرَدِّيًا فِي قَرارِ الْهاوِيَةِ السَّحِيقَةِ .

• • •

وَهٰكَذا لَقِيَ الصَّيَّادُ النَّاكِثُ الْعَهدِ جَزاءَ غَدْرِهِ أَعْدَلَ جَزاء ، وَعُوقِبَ عَلَى كَذِبِهِ أَشَدَّ الْعِقاب ، وَقَذَفَ بِهِ الطَّمَعُ إِلى الْهَلاك .

القصة التالية : الشيخ الهندى

قُطوفٌ من الآراء

فى مكتبة الكيلانى للأطفال

« . . . الأُستاذُ الكيلانِيُّ كَعَقْرَبِ الثَّوانِى ، قَصِيرٌ وَلٰكِنَّهُ سَرِيعُ الْخُطَى ، مُنْتِجٌ ، يَأْتِى بِدَقائِقِ الْأُمورِ . . . »

شوقى

« . . . وَهٰكَذا نَجَحْتَ — يا أُسْتاذُ — فِى أَنْ تُحَبِّبَ إِلَى الْأَطْفالِ مَكْتَبَتَهُمْ وَتُغْرِيَهُمْ بِالْمُطالَعَةِ . . . »

أحمد لطفى السيد

« . . . وتَمْتازُ تَواليفُ الْكيلانِيِّ بِالْبَساطَةِ فِى التَّعْبيرِ ، والصِّحَّةِ فِى الْأَلْفاظِ ، والرِّقَّةِ فى التَّراكيبِ ، والدِّقَّةِ فى الْأَداءِ ، والسَّلاسَةِ والسُّهولَةِ ، مَعَ اجْتِنابِ كُلِّ غَرِيبٍ ونابٍ ، ومَعَ تَوَخِّى التَّدَرُّجِ بِالطِّفْلِ .

هٰذا إِلَى الشَّكْلِ الْكامِلِ ، حَتَّى يُؤْمَنَ الْخَطَأُ ، والْإِكْثارِ مِنَ الصُّوَرِ الْجَمِيلَةِ الْمُغْرِيَةِ بِالْقِراءَةِ . . . »

إبراهيم عبد القادر المازنى

« . . . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْأُسْتَاذِ الْكِيلَانِيِّ إِلَّا أَنَّهُ الْمُبْتَكِرُ فِي وَضْعِ مَكْتَبَةِ الْأَطْفَالِ بِلِسَانِ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ ، لَكَفَاهُ فَخْرًا بِمَا قَدَّمَهُ لِرَفْعِ ذِكْرِهِ ، وَمَا أَحْسَنَ بِهِ إِلَى قَوْمِهِ وَعَصْرِهِ . . . »

خليل مطران

« . . . إِنَّنِي أُشْهِدُ اللهَ ، وَأَشْهَدُ أَمَامَ خَلْقِهِ ، بِأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ حِكْمَةُ التَّرْبِيَةِ مِنْ طَرِيقِ كُتُبِ التَّعْلِيمِ هُوَ الْأُسْتَاذُ « كامل كيلانى » . وَسَتَشْهَدُ هٰذِهِ النَّهْضَةُ بِهٰذَا يَوْمَ يَمُدُّ مَدُّها وَيَجِدُّ جِدُّها . . . »

الشيخ الإبراهيمى

« . . . وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَأْتِيَ الْيَوْمُ الَّذِي تَصِيرُ فِيهِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ سَلِيقَةً عِنْدَ مُتَعَلِّمِينا .

فَإِذا قُيِّضَ لَها ذٰلِكَ كانَ الْفَضْلُ راجِعاً فِي مُعْظَمِهِ إِلَى كُتُبِ الْأُسْتَاذِ الْكِيلَانِيِّ . . . »

دكتور على مصطفى مشرفة

« . . . أُهَنِّئُكُمْ بِهٰذَا الْعَمَلِ الْمُبْدِعِ الْفَرِيدِ ، الَّذِي قُمْتُمْ بِهِ بِإِعْدادِكُمْ هٰذِهِ الْمَجْمُوعَةَ مِنَ الْكُتُبِ . . . »

دكتور ما كلانهن